

الرَّصَائفُ والرَّوائقُ

السَّمتُ الرَّضيُّ، والسَّبكُ البَهيُّ.

كتبه

خالد إبراهيم المحجوبي.

الطبعة الأولى

1445هـ/2023م.

أخرجه واعتنى به

أبو عمار الأزهر بن عمار عيساوي

الطبعة الأولى

**جميع الحقوق محفوظة للمؤلف**

يسمح بالنقل والنسخ للأغراض العلمية

الرَّصَائفُ والرَّوائقُ

السَّمتُ الرَّضيُّ، والسَّبكُ البَهيُّ

خالد إبراهيم المحجوبي

1444هـ /2023م

بِسمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحمانِ ٱلرَّحِیمِ

‌﴿ٱلرَّحمَٰنُ، عَلَّمَ ٱلقُرءَانَ،خَلَقَ ٱلإِنسَٰنَ، عَلَّمَهُ ٱلبَیَانَ ﴾

تقريظ الكتاب

**بسم الله الرحمن الرحيم**

((الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد بعث إلي الأستاذ الأديب الكبير خالد إبراهيم المحجوبي بمسوّدة كتابه الجديد الذي سماه بـ (الرصائف والروائق / السَّمت الرضي والسبك البهي). وشرعت أقرأ الكتاب؛ فوجدته كمثل باقة أزهار جمعت فيها ألوان الزهور، أو كالسلة وضعت فيها أصناف الفواكه والأثمار اليانعة، لكل منها رائحته وطعمه، والكل لذيذ شهي.

وليس هذا مما يثير العجبَ، فإنه صدَر من يراعة عالمٍ تمَلَّك ناصية الأدب، وحلَب أشطر العربية، ولا يزال يكتب للقراء المتعطشين ما ينقع غلتهم، ويسد حاجتهم في مؤلفاته الثمينة.

والكتاب كما علمتُه من خلال محتوياته يتسم بالصياغة الأدبية القديمة الأصيلة والخصوبة والتنوع، والقدرة على الوصف. على شاكلة الحريري، والهمذاني.

والكتاب مجموعة خواطر جادت بها قريحة أديب راسخ لا يزلُّ، ولا ينحرف، وصَيرَفيٍ حاذق، كأن كلماته دنانير مصقولة، ينفث من خلالها السحر الحلال، فقد حشد في كتابه أطيب الثمار، وأحلى الأزاهير، وأغنى الجواهر. أسلوبه ممتع شيق؛ لأصالته وقوة تركيبه، وتجانس مقاطعه، وحلاوة ألفاظه، وقد بلغ فيه شأوًا لا يُبارى، يعز على الكثيرين بُلوغه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا به وبعلومه، ويبارك في عمره وعلمه.

وهو المستعان وعليه التُّكلان)).

**كتبه: محمد حيَّان بك القاسمي**

أستاذ الأدب العربي بجامعة (مظاهر علوم) سهارنفور/الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

(كتابكم هذا... أقسم بالله وأشهده بأنه على درجة من البيان عظيمة، احتلَّتني مفرداته. بارك الله لك. أيّ بلاغة هذه، وأيّ قُدرةٍ على الربط والرصف. لم أره في زماننا هذا.. على اطلاعي النَّهم. لقد فاق كتب الكثير، لدرجة أني وجدته أرفع من كتابات ابن القيم. لدرجة أنني عاهدت نفسي على حفظه عن ظهر قلب. هذا الكتاب هو الذي يستحق لفظ الدر المكنون، كتابكم معجم قائم بذاته.

بارك الله لك، هذه منحةٌ من الله لا يعلم عبء حملها الا من أجادها تقديرًا.

والله وهذا يمين غموس مغلظ، إن هذا الكتاب تحفة أدبية لم أَرَ مثلها قط... مجامعُ الكلم، وحسنُ تراكيب الألفاظ والمعاني، لا يدْرج مسالكها إلا متمكن وضليع، وصاحب اطلاعٍ موسوعي على شتى الثقافات... ولقد أرسلت كتابكم هذا لكثير من أصحاب القدر من العلم فذُهلوا منه...).

**الأديبة الفلسطينية: رشا الهاشمي.**

**كتبته -في رسالة للمصنف-**

بسم الله

(( كان من فضل الله تعالى أن طالعتُ رسالة أبي تميم الدكتور خالد بن إبراهيم المحجوبي- حجبه الله عن كل سوء- الموسومة ب(الرصائق والروائق، السمت البهي والسبك الرضي) فألفيتها وجيزة الورقات، سامية النفحات، فاخرة المبنى، رفيعة المعنى، حَوتْ إشارات سديدة إلى خلائق الكبار.

شكر الله لأبي تميم ما كتبه، وجعله من صالح الأعمال الباقيات.

وكتب: (بليغ بن مطهر العطاب) ٧/ ٩/ ٢٠٢٣م)).

المؤرخ والأديب اليمني:

بليغ بن مُطهّر العطاب

الفاتحة

باللهِ أتأيد وبه أغتني، وبنبيه أتسدد، وبه أهتدي.

وللهِ الحمد؛ فعليه اعتمادي، وإليه انقيادي، وبه اعتدادي، وله ارتيادي. كاشفِ كُربتي، وقابلِ قُربتي، وغافر حوبتي، وفاتح توبتي. مَن إذا غُـلِّقت الأبواب ظلَّ بابُـه مُشْرعاً، ومن إذا بخلت الأجْواد كان جوده مترعاً. هو مَن إليه تَوْقي، وعنه التَّوَقِّي. ومنه قُـوتِي، وبه قُوَّتي.

سبحان مَن إذا خافه النّاس؛ فزعوا تجاهه، وإذا عصَوه؛ فرّوا إليه، وله الفضل بما كتم وأبدى، وأراح وأعيى، وأخفض وأعلى.

**أما بعد**: فلقد رأيْتُني أكتب هذا المسطور، فأضرب عن بعض ما أكتب، وأستبدل به ما أراه للعامة أقرب، وأدنى إلى فهومهم وأوعب. وأقول لعله يكون أعقدَ في فهمه عند من يقرؤه، أو يكونُ أعوصَ في دركه عند من يطلبه؛ فيكون ما ذكرت لك من التخفيف والتدميث والتجلية، لكن لا إلى حدِّ النزول إلى ما لا يليق بنا من منازل البيان، ومراتب اللسان، وقد اضطررت لاجتعال حواشٍ سفلية لتفسير بعض ما قد يستبهم معناه على القارئين، وما ذاك من رغبتي ولا في مستحبي.

كل هذا رغم أني حين اعتزمت كتابته- في واهِلة أمري- أزمعت الاسترواح بالمعاني أُحكمها، بِأنْ أُسرج الأولى؛ لتركبها الأخرى، ثم على متن فرس البيان أرسلها، تجري ولا تلوي، تعدُو، ولا تكْبُو.

ثم رجعتُ بصري كرتين، فعلمتُ أني إنْ انتهجتُ ذلك، فما أنا إلا صائح في فلاة، أو مصوّت في مفازة. فأنى لقومي- حاشا النزر من خواصّهم- أن يستملحوا ما ينسج على منوال أهل الفصاحة، ويسبك على جديلة([[1]](#footnote-1)) أرباب البلاغة. وبينهم وبين قومي بُعد المشرقين، وبعد الصواب عن المَيْن، بعد أن خَوَتْ أَخاوينُ الخير بينهم، وأعجزها الحال أن تَتمَأَّد. مقفرة من عِلم يُزيّنها، وأدب يُحسِّنها، وفقه يجمّلها، وعقل يكمّلها.([[2]](#footnote-2))وما الحال فينا بأهون مما شكاه ابن قتيبة، ووصفه في مدخل كتابه أدب الكاتب، حيث الخائب فاضل، والفاضل خائب.

وفي جِواءٍ كهذه، أستذكر وأسترحمُ لأعلام البيان الحدثاء الذين حفظوا للعربية هيبتها، وأثْرَوْا ساحتها، وذادوا عن شريف حوزتها، كالمنفلوطي، كالرافعي، وأبي فهر، وأبي تراب الظاهري([[3]](#footnote-3)).

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

اعلمْ- لا عدِمتُك- أن خير الكلام ما انبسط مَيْداء معناه، وما انقبض مديد مبناه، حتى يصير احتمال تناول القارئِ له، فوق احتمال لفظِهِ إياه. وقتَها يكون قد ركب متن البلاغة الأكبر، وتحقق له منها الحظُّ الأوفر، وتضوّع له منها المسك الأذفر.

ولم يزل ذلك التجوّز ديدني فيما أكتب، وهِجِّيري فيما أقول، اكتفاءً بالأصول، وانكفاءً عن الفضول، واقتفاءً لجدير التبلُّغ، واغتناءً به عن ذريع التوسّع؛ فما ارتكبَ الكلام توسعاً إلا أزرى بقسمات بهائه، وأفقرَ من قبسات جماله، وأقفر من لمحات كماله.

ولقد استتم رصفُ هذا المسطورِ عندي، بمعان شريفة رائقة، ومبان حسينة فائقة، تحنّفتْ عن الرَّنَق، وتضمخّت بالوَمق. فأسميتها (**الرصائفُ و الروائق**).

ولم تزل كلمات اللافظ الفصيح تسُوغ في مساربها إلى قلوب السامعين، حتى إذا أثقلتها كثرة ضرائبها([[4]](#footnote-4))، وتزاحم ضرائرها من فضول الكلام، انقطع سلسال سبيلها إلى النفوس، وتعكّر سَوَغان تبلغها إلى القلوب؛ فكان مبلغ مسيرها وآخر مصيرها صماخ آذان السّامعين. وأتعس به من مَبلَغ يشاركك فيه نباح الكلاب، ونعيب الغراب.

لذلكم قالت العلماء" البلاغة الإيجاز". فبقدر ما يجاوز المنشئ حد الإيجاز، فإنه يدلف إلى ساحة العيِّ، وبذلك- وغيره- يمّاز البليغ الرفيع، عن الدعيّ الرقيع.

ولقد كان من وَكَدي انتهاضُ الذهن للوفاء بحق النصح، وواجب الإرشاد، وفرض الإبانة، وحقِّ التبليغ. مما استوجبه عليَّ تحقق القدرة على الإفصاح عنه، والإيماض به، لمن يقرأ هذا المسطور، سواءً قراءة متمقّل بنظر، أوْ لامحٍ بشزر.

كما أن لوِلْد آدم قِسمان، لا يستتم تمام خلْقهم وعيشهم إلا بهما وهما الروح والبدن، فإن البيان وكلام الناس قسمَان لا يستتم البيانُ تامُّ الوصف، بَهيّ الأثر إلا باجتماعهما، هما اللفظ والمعنى.

فقد يحسن اللفظ وتتزين كلماته وتراكيبه، وقتَ تحمّله معانيَ باهتةَ الفحوى، أو ذاهبة الجدوى. كما قد يحسن المعنى، ويشرُف المحتوى، رغم وروده في تراكيب واهنة، وعبارات شائهة. مثلُ هذا كمثل رجل نقي تقي، ابتلي بوجه دميم، وبدن ذميم. ومثلُ الأول كرجل وسيم المحيّا، بديع الطلعة، ابتلي بخلُق كريه، وطبعٍ سميج.

ولاجرم أن خير ما يَكتب الكاتب، ما جَمع من الطرفين خيرهما. أعني ما حسُن مظهره من كلمات حسينة الوقعة، وتراكيب بهية الطلعة. ثم ما حسُن مخبره من جميل المعاني، وشريف الأفكار. ولا تسل عن عظيم أثر اجتماع ما حسُن من الكنـَف والمُكتنـف؛ فإن لاجتماعهما لذةً تسكر دون خمر، وتطرب دون زَمْر. لا حرمك الله ذوقها. وقد قلتُ:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا ما استتمَّ القولُ مظهرَ رسمه |  | ومخبَر فحواه فذاك من البِشْر |
| كمثل البَها في الوجهِ والجسم وارفٍ |  | وفي القلب خير معْ صلاح به يسري |

وإني أستميحك؛ أن تعفيَني من ادعاء التواضع المصطنع، والتطامن المتّضع؛ فما عاد للاصطناع عندي موضع. ودعني أقول إن كتابيَ- الماكثَ بين أصابعك الآن- قد ضمّ من الحِكم جحافل، وهو في الصواب رافل، وسطوره بالجمال حوافل. لا يعروه كدر، ولا يعتريه رَنق. ذاك ما تبدّى لي منه، فإن سَنح لك فيه غير ذلك، فأنتَ بالخيار بين أن تمخر عبابه، أو أن تغلق دونك بابه.

كتبه / أبو تميم خالد بن إبراهيم المحجوبي

۩۩۩۩۩۩۩

باعث كتابة المكتوب

باعث كتابة المكتوب

وقد سنح لي أن أكتب هذا الذي بين يديك، تنفيساً عن نفَس نفْسي التي كادت تنطمر، وتفريجاً عن فطرتي التي أوشكت تنفطر، وقلبي الذي كاد ينعصر؛ فإني قد ابتلاني الله- تعالى- بالعيش في عصر طمّت العجمة على ألسنة أهله، وقَطنتْ الفهاهةُ أفواهَهُم، فبهتتْ أساليب كلامهم، وشاهتْ أضاريب بيانهم، وتمكّثت الْـغُتمة بين شفاههم، فاكتنف العيُّ بيانهم، وطوى بين جنبيه لسانهم، بل افترش ونام بين أسنانهم.

وإني إذ أكتب هذا المسطور، لكأني أطلب فسيح براح البرّ، عن كتِيم زنيق الحضر.

كما قد زُيِّن لي أنْ أكتبَ نكاية في جحافل الأفدام، الذين أعلم مِن شأنهم ابتهاض ما قد يرونه مسطوراً هنا، وأتيقن من فعلهم انتهاض كسيحِ الأفكار، وفسيح الإنكار، وضروب الاعتراض في الغدوّ والإِبكار. يكيدون ولا يفترون، وهم من كل حدَب ينسلون.

ولعمر الله ليس ذاك بصادٍ إيّاي عن مَهْيعِيَ الذي ارتضيته، ومَسلكِيَ الذي ابتغيته، وصددِيَ الذي اجتبيته، في اقتفاء أسلوب أجدادي، أهل البيان، وأقيال البلاغة. فلستُ أرضَى- من نفسي- الارتصاف في أجناب أهل العقوق، والاصطفاف مع الخائرين عن درك السموق، القانعين بالأدنى عن الذي هو أَولى.

ولست بمعزل عن استبانة تشَوُّف أحباب العربية، وتشَوّق عشّاقها، إلى التبلّغ بما يشبع نَهْمتهم إلى معشوقتهم الفصحى، وصريح جمالها الذي تعتّم بِدَلَسٍ من الرطانة طال أمده، وتغبّش بعتمة طاغية اشتد سوادها. وما عاد في مكتوبات الأسلاف ما يروي الغليل، فعاشق العربية، في عَوَز إلى جرعات مشبعة من بيان أجداده، وإلى طراوة في دفقات جمال البيان العربي، عوضاً عمّا يتعلل به النهِم الصادي، من سوالف بدائع الكاتبين الأقدمين، التي إن ارتوتْ بجرعات الإبداع، فإنها لم تحز -غالباً-طراوته وجدّته التي يتغياها الحُدثاء.

۩۩۩۩۩۩۩

حقُّ العربية

حقُّ العربية

ما احتقب لسان بشري من الشرف ما احتقبه اللسان العربي، وما شرُفت لغةٌ- مرَّ الأعصار- بمثل ما شرفت به العربية، بعدما اختارها الله تعالى لاكتناف أكمل كتبه، وآخر رسالاته، فبها بلغ القرآن إعجاز النظم والبيان، فاقترنت به واقترن بها؛ ليُكتب لها بهذا الاقتران، خلود الزمان.

وليس يحسن بمن آنس من روحها رواحاً، أو نشِق من عبيرها شذىً فوَّاحاً، أن يغمط حقها في أن يُركـِبها لسانَه، ويُسكنها جَنانه. فإنها- وحقِّ الله- أنقى ما نطق البشر، وأبقى ما خُط على ورق ونُقش على حجر، وأبهى ما سمعه ناطق وحَصِر، وأرقى ما صيغت به المعاني والفِكَــر.

فما شهدت ألسنة العالمين نديداً يضارع براح مجالاتها، وغزير تصريفاتها، وعزيز تركيباتها، ودقيق َ دلالاتها، وحسين سماعاتها، وبديع قياساتها.

وبحسب لغة العرب عظَمةً، أنها إناء كلام رب العالمَين، وإناء علوم العالِمين، ممن مهَدوا سبل الحضارة، ومسارب العلم، بطبّه، وفلكه، وهندسته، وفكره، ولغته، وأدبه.

وإني إذْ أسطّر- ما تراه- بيراعتي، وأستوقد فيه براعتي، فهو مني نفثة صدر، وحاجةُ روح، وغرضُ فطرةٍ، واستنفاسُ ذوقٍ، واستطلاب مَفرَج، واستجلاب مخرج، عن هاته الهُواءة، التي انحضج فيها ذوق أهل الزمان، وفهمهم، وبيانهم، ولسانهم.

هذا اللسان الذي تزوّج العُجمة سفاحاً؛ فولدت له شوائع الأغلاط، وشوانع الأساليب، وبشائع التعابير، وسمائج المكاتيب. حتى غدا- عندهم- حَسِينُ البيان حَسِيفاً، وكريم الكلام كسيفاً، وحُرُّ المعاني عسيفاً، وشريف اللسان أسيفاً.

إنه مآل يستنطق الحجر، ويستحضر العبر، ويذر ذوى الغيرة حسارى، وذوي الهمة حيارى. فحقَّ على كل ذي دين، ومروءة أن يجعل من جهده نصيباً لنصرة ضعفها، ومن وقته حظاً لرأْب صدعها، إذ خذلها بنوها، وخانها أهلوها، وأزرى بشرفها ذووها.

۩۩۩۩۩۩۩

بين الراغبين في الفصحى

والراغبين عنها

بين الراغبين في الفصحى والراغبين عنها

إني قد رأيتُ الناس أحد رجلين: الأول مقبل على لسان قومه، يستعذب نطقه، ويستلذ سماعه، لا يحجبه عنه حجاب، ولا يصده عنده وَجاج[[5]](#footnote-5). والآخر زاهد فيه، ذاهلٌ عنه، واهِلٌ عنده، قد درِب دُربةَ جهلٍ بقدره، وجَرَن جُروناً على هجره([[6]](#footnote-6)).

وإني لن أكتم شماتتي في من قرأ هذا- من خصوم الفصحى- فاستعصى عليه دركاً، واستقفل عليه فهماً، واستثقل عليه حملاً، أنْ كان مصاعراً خدَّه عن شرف كلام أجداده. ما دام ارتضى أن يمكث فَدْماً، لا يجهد من جسده عيناً ولا فماً، لاستدراك ما فاته من قويم كلام الأسلاف، واجتناب كُلوم([[7]](#footnote-7)) كلام الأخلاف. أولئكم الَّذون ينكرون ما لا يحسنون، ويزدرون ما يجهلون، ويستقلُّون ما يفتقدون. وما ذاك منهم إلا استتاراً من جهل احتسَوْه فانحبس في أوردتهم، وكسل اكتسوه؛ بديلاً لأكْسيتهم؛ فصار الجهل شعارَهم، والكسلُ دثارهم. فاذمم بهما من مُحتسىً ومُكتسى.

كما أني لا أكتم جَذَلي، ولا أكفُر غبطتي، ولا أستر فرحتي، بِمن قرأ هذا المسطور- من أهل الفصحى- فألفى فيه تروُّحاً لروحه، وتنفّساً لنفسه، وتبهُّجاً لمهجته. فما غير هذا يُؤمل من سدنة الفصحى المخلصين، وأحلاس أنديتها المُخْبِتين، وعُمَّار أفنيتها المحسنين. ممن إذا سمعوا أصواتها قَنُوا،([[8]](#footnote-8)) أو لمحوا حروفها رضُوا.

وإني لأطمع في أن أجد لهذا المكتوب أثراً يحفز أحباب العربية إلى نصرة كيانها، وتمتين بيانها، وإنافة بنيانها، وشدّ أركانها. وما ذاك منّا ومنهم بتفضّل ولا تكرّم، إنما هو واجب أثيل، وحق لها علينا أصيل، كحق الأم على ولدها. فإن لم يكن لها بناصر فقد تحقق منه العقوق، وأضاع تفريطه الحقوق.

مواتاة العربية، وتنكُّب أهلها

مواتاة العربية، وتنكب أهلها

وليس يَعزُب عن ذي حِجْر أن العاجز عن استعذاب لغة العرب؛ إنما ينبط عجزه عن تقصير منه، أو قصور فيه. لا عن تصلّب منها، أو تعسّر فيها. وقد استقر لنا من وصفها، كونها مواتية لطالبها، ومواطية لصاحبها. فلا نشوز([[9]](#footnote-9)) فيها عن مرور مريدها، ولا خَبار فيها عند مسير طالبها.

ولقد نعلم أنهم يقولون إنما هي لغة درَسَ زمانُها، وحُسِرَ أوانها، وخَسِر رهانُها. وما ذاك منهم إلا برهانَ خسران، وأمارةَ خذلان، وهْو منهم تعِلةٌ([[10]](#footnote-10))، هي فيهم علة، وتزيّدٌ([[11]](#footnote-11)) ألقى إلى قلة، وأفضى إلى ذِلة.

فما العربية إلا تلكم التي كان يتعاطاها آلاف الأعراب سليقة، ويتبادَلونها جِبلّةً، ويتباذَلونها فطرة. دون تكلف، ولا تعسّف، ولا تأفف. فلا يتَّكي أحدُهم على غيره؛ ليشرح له، ولا يَرتكِي([[12]](#footnote-12)) على سواه ليُفهمه. فماينبزها نابز، إلا هو أحمق أنْوَك، ولا يتهوّن شرفها إلا متهوّك أهوك([[13]](#footnote-13)).

وقد آثرت أن أكتب ولا أكتم، وأن أسجل ولا أُسجّن([[14]](#footnote-14)). أكتبه وقد مرَّ عليَّ حين من الدَّهر لم أسطر فيه قطعة من كلام الفصحى، مغتنياً بالفصيحة دون ما علاها، تطامناً مني إلى أمزجة العوام، من دهماء الأنام، وإلى غلبة الحُكْلة[[15]](#footnote-15)، وسلطان الرّكاكة الماكث في أذواق أكثر الناس، وما حفلت به جموعهم من مسيخ الروائق[[16]](#footnote-16)، وكسيح الذوائق[[17]](#footnote-17)، وما قابلتْ به تراث الأجداد من نكير الجفوة، وثقيل الجُسأة[[18]](#footnote-18)، وقبيح النَّبْوة[[19]](#footnote-19). وما ذاك منهم إلا نوعَ عقوق، وإن كان الآباء فيه غَبَروا وانقرضوا، فلا يخِفُّ وطؤُه عن عقوق الحاضر للحاضر، والحيِّ للحيِّ.

كما قد أبهضني[[20]](#footnote-20) ما طابتْ به نفوس القوم من رطانة الحـُدثاء، وفهاهة[[21]](#footnote-21) الدخلاء، وتهاتِه[[22]](#footnote-22) الثقلاء؛ حتى غدت لغة العرب فيهم هجينة، وهيبتها بينهم هَجيرة، وآمالها عندهم هَجيعة[[23]](#footnote-23). وما كان أغْناهم عن استبدال الأدنى، بالذي هو خير، لولا ما وقر في قلوبهم من ابتخاس ما ورثوا، وانتقاص ما وجدوا، مما أعجزهم اتخاذه قُنوة تـُقتنى، وأُسوةً تحتذى. وما الواحد من هؤلاء إلا كغَذَوِيٍ لا حظَّ له في حليب أمه.[[24]](#footnote-24)

وليس يعزب عنّا أنَّ من موجعات الدّهر أنْ صار كلُّ صاحبِ بيان نبيذاً، بين طفيليّي الأدب، وصعاليك الكلام، أولئكم الذين لا يسنح لك بين قطعانهم إلا راحلةٌ، بين كلِّ مئة خاملة. ولا تكاد ترى فيهم إلاّ خاطلاً)[[25]](#footnote-25)( يحمل باطلاً، مَن ليس حمولته من الأدب والعلم إلا كنُغبة طائر[[26]](#footnote-26)، مِن أُجاجٍ فائر.

وما شأنُ واحدهم في نوادي الأدب، ومجالس العلم، إلا كنُغاشيٍّ[[27]](#footnote-27) يطاول جبلاً، أو كفيل يسابق جملاً.

وكم قد رأينا منهم، من تكلف الجمال، فما حازه إلاَّ بظاهر لُبسه، ومن تكلف الفضل فما أدركه إلاَّ بوافر أكله. ومن تكلّف العلم؛ فما أدركه إلا في خالص وهمه. فقل لي- بربك- ماذا بقي لهم مما يُدلون به في أنهار المعرفة، وآبار البيان. وقد تم فيهم الفقد للجمال، والفضل، والعلم. بقدر ما تمَّ فيهم الجمع للتكلف، والقبح، والوهم.

ومن عجيب شأنهم، أنَّ الفرد منهم لايكفيه الترفّع يبْرزه، والغرور يظهره، وقد علم العقلاء أن المترفع ما انتهج الاسترفاعَ عن أترابه، والتّعاليَ على أضرابه؛ إلا لنقص وجده في ذاته، أو لقصور حرّك فيه مناغص، تُبْدي لعين روحِه ما لاتراه عينُ وجهه. فوجد في التزيّد، والتّباهي، والتّعالي، ستائرَ تُحجَبُ دونها الدواهي، والدّواني، والمخازي، مما استوطن قلبه، واستبطن نفسه، حتى انغرست في ذاته، فأينعت، وأثمرت. فبئس المـَغْرَس، والمـُـغْتَرس.

أرأيتَك دُحروجة الُجعَل، يدهدهها وقد اغتمرها الغبار الموطوء، فما هي- عندي- بأبخس منهم، ولا أقدارهم بأشرف منها؛ ﴿‌وَمَن ‌یُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكرِمٍ﴾[[28]](#footnote-28).

ورب رجال تبلغ بسوء أخلاقها، وسماجة طباعها، وخسة نفوسها، ما يعجز عن دركه سائمات الدواب، وخائسات الذئاب، وخاسئات الذباب.([[29]](#footnote-29))

فما حق أضرابهم علينا، إلا ضرباً بالنعال، أو طعناً بالنصال، أو رمياً بالنبال. فما هم بأقل خطراً من عدوٍ مقتحم، أو وباء مدلهم، أو بلاء قد أَحَمّ.[[30]](#footnote-30)

۩۩۩۩۩۩۩

**الشكوى من سوء خلائق البشر**  الشكوى من سوء خلائق البشر

وليس بـِمُكْنة أحد- ممن يواطئ مذهبي- أزْيــَدَ من أن يَذِيمَ إلى عصرنا أُناسَه، وأن يشكوَ إلى دهرنا جُلاسه، ممن جعلوا مُكثنا بينهم كمُكث السابلة في ضيافة اللئام، لا بشاشةَ تُرى، ولا طعام يُقرَى، ولا نوال يُرجى، ولا خيرَ يعطى، ولا فضل يحسب، ولا بِشْر يُرقب. فالسوءُ أسرع إلى ظنونهم، والكيد أرسخ في فنونهم، والشر ألصق بذقونهم.

وإنك لترى الواحد منهم إنْ حضرتَ بوافر فضلكَ لا يحسّ بك، وإن غبتَ لا يحسِبُك. لكن إن هو احتاجك قد يعبدك، ثم لا يني من المديح يعبُّ لك.

صار من نكد الدنيا أن ترُصُّك في مجموع أقوام هم أسرع إلى أذية غيرهم، منهم إلى منفعة أنفسهم.

إن أحدنا إذا شخص بتمام بصره نحو بحر الحياة؛ سيلقى الناس فيه مواخر، ثم لهم فيه مصائر، فمنهم غريق، ومنهم ناجٍ، وفيهم سابح، وفيهم هالك، ومن أشد ما يمضّ القلب من شأنهم أنْ تجد أكثرهم شاغلاً نفسه- حاريَّ دهره- باحتفار زُبيةٍ)[[31]](#footnote-31)( يتصيد بها الأفاضل، أو اقتعاد قُفية) [[32]](#footnote-32)(؛ يترصد منها الأماثل. حتى إذا واتته من أحدهم غِرَّة؛ أوْبَصَتْ نارَه)[[33]](#footnote-33)(، وأشرعت أظفاره، وأجهرتْ أخطارَه. فإن فشل دون ذلك، سلّ لسان القتات من قراب فمه، يخبّب، ويؤلب)[[34]](#footnote-34)(. ألا ساء ما يَزِرون. وإن عجز عن إيقاع الأذية بتلك الضحية؛ فهو بين أحد أمرين: إما أن تنفضح سريرته، وإما أن تنفقع مرارته. فاللهم لا تستر لأحدهم سريرة، ولا تحفظ له مرارة.

وإن تكلّف أحدهم الإكرام؛ حباك كشْراً مصطنعاً، لا يمُتُّ إلى قلبه بوشيجة، ولا يتأدَّى إلى نفسه بوليجة. ثُم هُمْ أُلاءِ يَشيحون بوجوههم، ويَبْهزونَ([[35]](#footnote-35)) ذوي الفضل بينهم، يُظاهرون عليهم بالعنت والإيذاء، لا يرقُبون فيهم إلاّ ولا ذمّة، ولا يتقون منهم سُبةً ولا مذمة.

وإلى كل أولئك الصفات، أوذينا بما شِيهَ منهم من الطبائع، وما شِيع فيهم من الطمائع، وما تعتّم عليهم من العلوم، وما تكدّر لديهم من الفهوم. وما تأخر عنهم من الصواب، وما تقدم إليهم من الخراب، وما اعتلاهم من الصِّخاب، يخالون أنهم تيجان ذوي الفضل، وما جاز قدر أحدهم دُحروجةَ الجـُعَل.

ولقد نعلم أن مثَل ذي الفضل بين الناس، كشريف احتَوَشه الطغام، أو ذهبٍ استبطنه الرغام، أو مستحبٍ بين الحرام.

وكم كان أبو الطيّب موفقاً في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وما أنا منهمُ بالعيش فيهم |  | ولكن معدن الذهب الرغام  الرغام |

ولا غرو، أن سنة الحياة بهذا سارت، وأحداثها له اختارتْ، فجارتْ، حتى صار الأصل في تصاريفها مساوقتها للمَين، ومصاحبتها للحيف، ومُساحبتها للزيف، ومصاقبتها للعيْف[[36]](#footnote-36).

وليس يهوّن من ذا الحال المهيض، و يُوَهِّن الإصْر البهيض، إلا بقيةٌ من أفاضل الزمان، هم من القِلة بمكان. يخطرون لماماً كسحاب صيف، أو أعاجل ضيف.

هم بلسم لقروح الأيام، ومِقرضةٌ لأنياب الأسقام، ومَذهبةٌ لفظاظة الأنام. هم آنية للصواب، ومواقد للحكمة، ومراصد للتوفيق، ومحاضن للسداد، ومساند للرشاد.

وفي مثلهم قال الخليل الفرهودي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وَما بَقِيَت مِنَ اللَذاتِ إِلّا |  | مُحاوَرَةُ الرِجالِ ذَوي العُقولِ |
| وَقَد كانوا إِذا عُدّوا قَليلاً |  | فَقَد صاروا أَقَلَّ مِنَ القَليلِ |

وما أصدق قول الجاحظ:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **يُطيب العيشَ أنْ تلقى حكيماً** |  | **غذاه العلم والنظر المصيب** |
| **فيكشف عنك حيرة كلِّ جهل** |  | **وفضلُ العلم يعرفه الأريب** |

وليس يَعزُب عن أحدنا أن ذاكم الصنفَ الطيب هم في الناس أمشاج، فبهم اختلطوا، وفي سوائهم خُلطوا، لكنهم قلةٌ كغيوم الأصياف.هم فينا أماثلُ، كلهم عن الشر عائل، وخيرهم للعين ماثل، وبِرُّهم بيننا جائل، وعن الضيْر حائل.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

ولقد نعلم أن لله حكمةً في اصطناعه الأخياف في صُنعه، وبثه الأوشاب في خلقه، وجعله الأضداد في أرضه. فما شيءٌ يَبِين حقّ ما فيه من فضل، إلا بوجود ضدِّه أمامه، وسُنوح عكسه قُدّامه. كالشر للخير، والسقم للعافية، والجهل للعلم. وفي هذا المعنى قال أبو الطيب المتنبي عن أهل اللؤم:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **ونَذِيمهم وبهم عرفنا فضله** |  | **وبضدها تتبيّن الأشياء** |

وصدق أبو تمام في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سمُجت ونبّهَنا إلى استسماجها |  | ما حوْلها من نضْرة وجمال |

وقول دوقلة المنبجي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ضدان لمّا استجمعا حسنا |  | والضدّ يظهر حسنه الضدُّ |

ولقد صح عند التحقيق في خلائق البشر، ومفاتشة صنوفهم، أن الإنسان مخْبوء تحت لسانه، هو أصدق كشفاً عنه من سائر جوارحه وأركانه. فبه تكشف دواخل النفوس، وبه يستبين حاقّ قدره، ويمَّاز صالح شأنه عن طالح أمره. إذْ لا سبيل إلى إدراك مكتومِ الضمائر، ومغيَّبِ القلوب إلا بما يسنح من فلتات اللسان، ومخرجات الأسنان. وما القلوب إلا أكنان مغيبة الفحوى، فما يدري ما فيها انطوى، إلا عالم السرّ والنجوى.

۩۩۩۩۩۩۩

فضيلة العزلة

فضيلة العزلة

إنك ما دمت اخترت ولوج غمار الناس، والْمَـخَر في عُبابهم، فلا نُدحة لك عن معروف تناله، أو منكر ينالك. وإن كان الآخر منهما هو الغالب عليهما، غلبة تجعل الأول في عداد النوادر.

ولقد بلوْت من شأن بني حواء وتكشّف لي من خبيء أمورهم، وخبيعٍ([[37]](#footnote-37)) شرورهم، ما قد أجاءني([[38]](#footnote-38)) إلى المفارقة عن المرافقة، وإلى المتاركة عن المشاركة. فاستبدلتُ بالانضواءِ فيهم الانطواءَ عنهم؛ فما أدركني من ذلكم إلاَّ زيادةَ خير، وبركةَ سير، وهجرة ضير، وراحة بال، وحسن حال، ويهاء نفس، وهناء روح.

وإن كان كل أولئك مقترناً بقدر من الأذيّة، فما من نُدْحةٍ لحيٍّ عنه، ولا مفر لعائش منه. ولعل فيه من الخير ما الله يعلمه، ولا نعلمه. وصدق ربنا في قوله: ﴿‌وَعَسَىٰ أَن تَكرَهُوا شيْئًا وَهُوَ خَير لَّكُم﴾[[39]](#footnote-39).

ولقد رأيت من صنوف العباد، وصروف الأيام والبلاد، ما أجاءني إلى اتخاذ العزلة مذهباً، واجتناب الكثرة منهجاً. واجتعال تقلّلِ الجلاّس فرضاً، والتَّحنُّف عن السُّنُوح واجباً،([[40]](#footnote-40)) وشهود الفُضول محرّماً، ومقاطعة البَشر مباحاً. ولقد صحّ عندي أن للمرء في العزلة، عزٌّ له. فالاعتزال محض اعتزاز.

وإن ألجأني إلى المخالطة مُوجب، كطلب رزق، أو بذل عون، أو شهود جمعة، أو عزاء فقيد، أو صلة رحم؛ فما يكون من اجتراح أولئك إلا بأضأل قدر ممكن، وأبأل زمن متاح.([[41]](#footnote-41)) ولله قول ابن عطاء الله السكندري: "ما نفع القلبَ شيءٌ، مثلُ عزلة يدخل بها ميدان فكره".

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

ومما تحقّق لديّ أنَّ ترك الاعتزال في واقعه اعتزال. حيث تشغلك المشاركة، ويَعْزلك الاختلاط عن: مجالسة فكرك، ومقابلة قلبك، واسْتبار نفسك، واختبار ذاتك، واغتوار روحك.

وما إخاله يتأتى لواحدنا أن يدرك شيئاً من كل أولئك، إنْ هو لم يأخذ لنفسه من العزلة حظاً واسعاً، وقِطاً شاسعاً، ونصيباً فاسحاً.

فما خيرٌ تراه في اقتعادك موضعاً تشرك فيه نفسك بمن هو من غير جنسك، ديناً، وخلقاً، وهوىً، وأدباً، وفكراً؟ وما الخير تراه في اجتعالك نصيباً من وقتك، تذيبه في سواخن الطرقات، أو تجمّده في باردات الليالي؟

لا يستوي مثلاً الّذون حفظوا لأعمارهم أيامَها وساعاتِها، والّذون أتلفوا من قوامها ما لا يستعاض عنه بمكانز الدنيا.

ولا يستوي شأن من ضنَّ بأوقاته أن تنهشها صوارف الأيام، و تتلفها فراغات العُطول، وشأن من استباح كسادُه حرمة أوقاتِه، واستدام فراغه التهام أيامِه.

ولقد بلغنا ما خرجه الترمذي من رواية أبي برزة نضلة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه)). (**[[42]](#footnote-42)**)**

ورحم الله ابن الخطاب يوم قال ناصحاً ((خذوا بحظكم من العزلة )).([[43]](#footnote-43)). وأبا الدرداء يوم قال: ((نِـِــعـْم صومعة الرجل بيته؛ يكف بصره ولسانه)).([[44]](#footnote-44)) فكنْ لأجل ذلكم كبارح الأروى، قليلاً ما يُرى([[45]](#footnote-45)).

وقد يثقل على الأكثرين استطابة مذهب الاستقلال والاعتزال، ورب فاضل ظل في هوّة بين الناس، فأدركه الابتئاس، وجفاه الائتناس، لأجل ما يغلب على عينه، ويرين على قلبه، ويمور في نفسه، ويحوك في ذهنه، جراء ما يحتقبه من فظاظة مخالطيه، وسماجة معاصريه، وفهاهة مخاطبيه، وتهاتِه محادثيه، وركاكة مجايليه، حتى تصير مغادرة مِسلاخه أهون على نفسه من اجتلاس مجالسهم، وارتياد مسالكهم.

وفي هذا المعنى قلتُ:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تُلق نفسك بين الخائضين بها |  | إن التخوّض مسراه إلى الخطر |
| واعلم بأنّ جلوساً في فنائهمُ |  | كالمرء يجلس فوق الشوك والدُّسُرِ |
| لا ألفينْكَ تروم الفضل عندهمُ |  | مثل النُّغاشِيِّ يطلب ذروة الشجرِ |

ولله قول الزمخشري (( لا ترضّ لمجالستك، إلا أهل مجانستك)). وقد صدق النصح، فالمشاكلة الخلُقية، مؤذنة بتوطيد حبال المصادقة، وتمتين جسور المرافقة. على غير نحو ما تراه من التفارق بين الطبائع، حيث لا حظَّ للتَّوافق بين المتفارقين فيها، ولو تكلّفوا التصادق، وتصنعوا التوافق، فما هذا مما يدوم حاله على التكلف، ولا مما يعمّر أمده على التصنع؛ لأجل أن التصنع الخارجي من مقدورات الأعضاء، وما تصطنعه من سلوكات ظاهرية، وتجسدات جسمية للعين مرئية. والزيف في هذا الباب متاح غير ممتنع.

أما التصنع الداخلي المتعلق بالأرواح ودواخل النفوس؛ فهو مما لا عُمر له، ولا متاح فيه لطامع، ولا نُدحة فيه لراغب، إذ ليس للأرواح جوارح تبدي خلجاتها، ولا أعضاء تظهر شعوراتها، فهي من عالم الطهر والنقاء، حيث موئل الطبائع الفطرية، والشمائل الجبلّية. فأيهات منها التصنع، وأنى لمثلها التخدّع. ([[46]](#footnote-46))

ألم تر أن الأرواح حين تَئين منية الإنسان؛ تنفك عن بدنه، لتتركه للبِلَى، طُعمةً لتراب الأرض ودودها، لتسموَ محلقة في السماوات العُلى. ليُسكنها الْمُميتُ حيث شاء، مما يليق بها.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*

لقدخلق الله الناس وسخّرهم، بعضاً إلى بعض، وقال: ﴿لِّیَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعضًا ‌سُخرِيًّا﴾[[47]](#footnote-47). فكانت أرزاق كثير منهم منوطة بأيدي كثير آخرين. ومصالح أغلبهم موقوفة على التعاطي والتبادل المبذول بين سالكي طرق الارتزاق، ومسالك الارتفاق.

ولقد نفّرت شريعة الله عن الاتكال المفرط، والتعلق الغالي بالناس، بعيداً عن سعي النفس، وكدّ البدن، وجهد العقل. فكان الناسُ أحدَ رجلين، إما عصامي مترفع عن الاتكال، وإما اتكالي عاجز عن الارتجال. وما كان من شأن هذا الآخِر إلا أن تواهن؛ فأدركه الهوان، وتخانس عن ترصد المعالي، وارتكن إلى مواهب الناس لا يبالي؛ فاحتوشه الخمول، واصطحبته الذيول، والتبسه الذبول؛ فكان عاقبة أمره حياةً شعارها الإياس، ودثارها الإبلاس.

ولقد كان من معهود سنن البشر أن من اتكل على غيره، وجعل هجّيره التّواكل، ودأبه التهاون؛ أصاب من ذل المسألة، وثقل الصدود ما يلقيه في أتون اليأس.

أما من ضَبَأ إلى مفارقة الاتكال، ووَأل إلى حَرَمِ الاعتزال عن السؤال، فإنه لا ريب محصّل لشرف البراءة عن إهانة أهل المنِّ، وإذلال أصحاب الإعانة، وتباهي ذوي العطاء.

كما قد جرت سنة الحياة بإكرام من تزيّل عن مخالطة الكثرة، وترفع عن حرجِ المسألة، وأناف عن سفوح المطامع. مؤثراً العزّ بعزلته، والسُّموق برفعته.

۩۩۩۩۩۩۩

الهمَّة مُوصِلة، والخمود مهلكة

الهمَّة موصلة، والخمود مهلكة

ليس بكائنٍ حسْن التدبير، في همة منك تبُوخ([[48]](#footnote-48))، ولا تبرُّم فيك يلوح. فالكيّس من جعل المثبطات دُبُر أذنه، والمفتّرات وراء ظهره، والصوارف تحت رجله، والمعالي فوق رأسه، والرغائب وسط عينه، والمأمول صوب أنفه. حينها يكون قميناً بالوصول، ومجْدرة للدخول.

وليس أقعس الرجالِ من أعجزته بواهض الكدِّ، أو أقعدَته مثاقل الشدّ، بل هو من تَمكّثَ عاجزاً لِما سمِعه، أو تبنّكَ آيساً بما علِمه، أو تلبّث خامداً لِما بلغه، دون أنْ تطرق رجلاه منِ الطريق خَباراً، أو تمازج وجنتاه من المسير غُباراً، أو تعالج ركبتاه من السبيل عثاراً. فما عليه بعدُ إنْ كان ذلك منه، أن يدرك التوصّل، ما دام قد حقق التوسّل. فمكابدة الوسيلة، عزاءٌ لفاقد الوَصِيلة.

وليس قمينا بمن هِجِّيره التبنّك([[49]](#footnote-49)) والخمود، ودأبه التمكّث والهُمود، أن يشكوَ أمره، أو يبدي ضجره، أو يعلن حرَدَه. فخليق بأضرابه حرمان الوصول، وملازمة الذيول، ومخادنة الذبول، واللبثُ في ذهول. فهذه النقائص أولى به، وهو بها أجدر، ما دام شأنه قائماً على ما وصفنا وأخبرنا. فإن لم يصر منه حاله إلى غير حاله، فما له ندحة من أمل إلى مزايلة خذلانه.

وليس بغارب عن كل ناظر أن التخذيل يورث التذييل، فمستمرئُ اقتعاد الأعتاب، واحتذاء الأجناب، لا جرم أنْ قد أورثه ذلك تخذيلاً حاق به- يوماً- من رفيق حسبه صديقاً، أو خَدِينٍ ظنه صدوقاً، أو معيلٍ قصرت عنه النفقة، أو قريب زايلته الشفقة. وظاهر أن أجهر ما وراء ذلك من الأسباب، إدمان الاتكال، وتعجّل النوال، وتلاشي الهمة، وخوَر العَزْمة.

۩۩۩۩۩۩۩

رذيلة نكران الفضل

رذيلة نكران الفضل

لقد رأيتُني أبذل من الجهد ما يُعجز الرهط من الرجال، ثم لاينالني من جريرته غير الوبال، أو الندامة في أهون الأحوال. وما صار ذلك يؤذيني برغم غزارته على مرِّ سنيني. فقد أخبرتني الدنيا أنها لا تسير بغيره، وأقسمتْ لي بأنْ لا تتركه. فالجحود عنوان رحابها، وسُنَّة أبنائها، وهِجّير طُلابها.

وكم قد رفعتُ من خسيسة قوم، حتى إذا آن أوان ردهمُ الجميل؛ باحت الدسائس من تحت الخسائس، فما كان أغناني عنها وعنهم، لولا غَرارة أُورثْتُها، وغفلة أَدمنتها.

قلتُ:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا أنت أوليت الخسيس كرامةً |  | فما لك من لومٍ يُلام سوى لكَ |
| فما كل خير يُرتجى حُسنُ غِبّهِ |  | وما كل راجٍ يستحق نوالك |
| ولا كل مبيضِّ الرداءِ نظيفُهُ |  | ولا كل مغْضٍ للعيون سجى لكَ |
| فرُب رفيقٍ ظاهرٌ حسن حاله |  | هو النار تتلف ما لديكَ وما لكَ |
| فأيقظ عيوناً منك ظلت عَمِيّةً |  | وفتّح مسامع إن أردتَ النجا لك |

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

ذاك شأنُ من غرك منه ظاهره، مما لم يبح به مخبره، وكأيّن ممن اكتسته بَشاشة الكرماء، وهشاشة القرباء، فلما تكشف عن صريحه؛ رأيت فيه سحابةً خرساء، لا تسمعك رعداً ولا تريك برقاً. أو كناقة عجفاء، لا تَسقيك ضرعاً، ولا تَغذوك لحماً، ولا تُعليك ظهراً.غيابه يضارع حضوره، وبعده يماثل دنوه، وقربُه يطابق فقدَه.

وإن أنت ذهبت تستوهب الأيام كشف بواعث نفاقه معك، وسوء أخلاقه نحوك، وشرّ مكنوناته لك؛ ما ظفرت بجواب منها يكشف حَيرتك، أو يسقي غُلتك([[50]](#footnote-50)).

وغالب الأمر- عندي- أن تلك الخلائق عند أولئك الخلائق، إنما باعثها كوامن نفسية، ومكتومات قلبية، قوامها الحسد، أو الغَيرة، مما اجترمته قلوبهم، وانضمّت عليه جنوبهم؛ لأجل ما حباك الله به وحرمهم، ومنحك إياه، ومنعهم. كذكاء واسع، أو خير ذائع، أو غنىً شائع، ونحو هذا من نعم الله التي يحبوها بعض عباده، ويمنعها عن بعض؛ لحِكم هو أعلم بها.

والعجيب أن ذاكم النوعَ من الناس، يكثر منهم الكيْد، ويغزُر فيهم البغض، لمن تحقق منه الإحسان عليهم، والنفع إليهم. هذا الصنف هو ما دعاه المتنبِّي باللَّئيم، يوم قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وَما قَتَلَ الأَحرارَ كَالعَفوِ عَنهُمُ |  | وَمَن لَكَ بِالحُرِّ الَّذي يَحفَظُ اليَدا |
| إِذا أَنتَ أَكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ |  | وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا |

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

إني وإن ارتدى التشاؤم كلامي، أو انْـتَضَى([[51]](#footnote-51)) التَّعْس من قِرابهِ لساني، فلست بقاصد إلى إقناطك من سنوحِ الخير من بعض خلق الله، أو بُدور فضل من بعض من تلقاه، فالله أكرم من أنْ يحجز كل خيره عن كل خلقه، وهْو أكرم من أنْ يحجُر إنالته عن الطالب، أو يحجب رفادته عن الرَّاغب ولم يزل الواحد من بني حواء يستنيل ربه؛ حتى يتنَوَّل من الخير ما يُطغي ويشبع، ثم يثيب([[52]](#footnote-52)) صحيفته بما يخزي ويبشِع.

وليس لأحدنا- نحن البشرَ- أن يستعجب اجترام جنس الإنسان هاذاك الخلق الرذيل، يتعاطونه- بعضهم إلى بعض- فإن ربهم الله- تعالى- لم يسلم من مقابلة إحسانه بما ذكرنا من نكران للخير، وكُفران للفضل.

وممَّا له تعلق بهذا المعنى ما رُويَ في بعض الأحاديث القدسية **(أخْلُق ويُعبد غيري، أرزق ويُشكر سواي. خيري إلى العباد نازل، وشرّهم إليّ صاعد، أتودد إليهم بالنّعم وأنا الغني عنهم. ويتبغّضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر ما يكونون إليّ)**[[53]](#footnote-53).

عجباً لنا- نحن البشرَ- من جنسٍ وخليقة؛ فصنفُنا أحرص على أذية غيره، منهُ على نفيعةِ نفسه. وقدر اللذاذة في إضرار غيرهم، أغزر منه لديهم في نفع أنفسهم.

ولا يكفي الواحدَ منهم ما اجترم من بوائق، هو وفصيلته القائلين لإخوانهم هلمّ إلينا، أشحةً على الخير، ولا يأتون الخير إلا قليلاً. ولسان حال كثير منهم قائل: "إنْ لم تغلب؛ فاخلُب". وقائلٌ: "اطعن من استطعت، ولا تبال إنْ كانت طعنتك سُلْكى، أو مَخْلوجة([[54]](#footnote-54))، فلا أحد أحق بالحياة منك، ولا أولى بالنَّجاة فيها سواك.

هذا لسان حالهم يفضح مكنونَهم، ويقول مكتومَهم. فبئس القائل، والقالة، والمقول له. وتعِس زمانٌ أهله على هاته الشاكلة. ذلك مبلغهم من الخبث، وقت ساءت النية، وخاست الطوية.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

ولقد خبِرْنا من خُلق أولئك أن أحدهم يودّ لو يُزاد له من عطايا الحياة، حِلّها وحرامِها، وما هو بمشبعه أنْ يُزاد، ولا بمقنعه أنْ يعطى ما أراد، فما مناطُ الأمر في زيادة أو إقلال، إنما مناطه في قناعةٍ تُكْثِر قليل ما يُطال، وبركةٍ تُعْظم بـَئيل ما يُنال، ولو أنهم ارتضَوا ما حصَل، واكتفَوْا بما وصل، لمثوبة من عند الله خير.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

لا يحملنّ أحدَنا الإياسُ من النّوال، أن يطلبه دون اشتمال شرفه، واكتساء كرامته. فدونهما لا بركة في أي نوال، ولا غَناء من أي مال؛ ولا طائل في أيِّ مَنال؛ فالمسلوب حينها أغلى من المجلوب، والمُكتسى أبهض من المنتَضَى. ولَأَنْ يمارِغ الرجل الرغام بثواقل فاقته، أشرف لعينهِ من الترفُّل في النّعيم دونَ كرامته.

لقد شاء الله- تعالى- أن لا يجعل خلقه على جديلة واحدة، شكلاً، ولوناً، وطبعاً، وذوقاً، وأصلاً. فسنّ لهم أنهم يتماشجون، حال كونهم يتواشجون([[55]](#footnote-55)). وجعل من مظاهرحكيم حكمته، ومُحكم حُكمه، أنّ الخلاف فيهم سنة؛ فخلق للخير بشراً، فهُم فيه، ومنه، وله. وخلق للضيْر بشراً، فهم فيه، ومنه، وله.

وخَلَق ضرباً ثالثاً ميالاً حيث يميل الأكثرون، وبازورارهم يَنْتَحون، وبإحجامهم يتأخرون، وبإقدامهم يتصدرون. لا تَكِدّ عقولهم تفكيراً، ولا تَجهَد جوارحهم تدبيراً، ولا تُشَدّ أفواههم تعبيراً. إمعة؛ حيثما قِيدوا؛ انقادوا، وحيثما طلبوا؛ ارتادوا، وكيفما عُوِّدوا؛ اعتادوا. هؤلاء قد خنست عنهم الهمم، وهرئتْ منهم الرمم.

يعلمُ الله، لقد رضينا بما ابتلينا، فنحن وأنت بين قوم إن غبتَ شتموا، وإن افتقرتَ؛ شمتوا، وإن اغتنيتَ حسدوا، وإن طلبتَ؛ منعوا، وإنْ منحْتَ؛ رغبوا، وإن منعتَ؛ سخطوا. وإن مات كلبكَ؛ تزاحموا بيتك، وإن مِتَّ أنت تركوا دفنك.

وما مهروا في أمر، كمثل مهارتهم في قلب الحق على غير ما هو عليه، وكمثل تغييب معايبهم عن أعين الرقباء، وما مثلهم ماهر في تغييب معالم السوء الماكثة فيهم. وإن مثل ما يدلون به من أعذار، كمثل المِرفَد تتعظّم به الرسحاء،([[56]](#footnote-56)) أو المِسند يُسند الكسحاء.

فما الخير في مقاربتهم، وما المنحة في ممازجتهم، وما الصواب في معايشتهم؟

إنْ قُربهم إلا إجبار حيث لا خيار، واضطرار حيث لا قرار. عقود تكرّ، وسنون تمرّ، وأيام تضر، وقَلَّ ما تسر. ولم يزل أهل العقول تتحير مواطئ أقدامهم، ونواتج أفهامهم، إزاء تلكم الأصناف، إقداماً وإحجاماً، جَمجَمةً وكلاماً. أمَا وقد تعسّرت المواطأة، فقد وجبت المقاطعة.

قال الشريف المرتضى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بلوت وجربت الأخلاء مدة |  | فأكثر شيء في الصديق ملال |
| وما راقني ممن أودّ تملق |  | ولا غرني ممن أحب وصال |
| وما صحبك الأدْنَوْن إلا أباعد |  | إذا قل مال أو نبَتْ بك حال |

وعن الشافعي ورد قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا لم أجد خِلًّا تقيا فوَحدتي |  | ألذ وأشهى من غوي أعاشره |
| وأجلس وحدي للعبادة آمنا |  | أَقرُّ لعيني من جليس أحاذره |

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

إنك إن لم تجد من تشاركه عَيبة مكفوفة، وذمة محفوظة، وخافية مطمورة؛ فأنت إلى ترك مصاقبته([[57]](#footnote-57) )أحوج منك إلى شد مصاحبته. فما الخير في مَن إذا احتجته، فقدته. وإذا طلبته عدِمته. فما هو لك إلا كَوَهمٍ لواهم، أوحُلُم لنائم.

ولن تكون عن الحماقة بمعزل، بل أنت فيها بمَنزل، إنْ أنت رجوت النُّصرة من أضرابه، أو شددت عضدك بأمثاله، فما رجاؤك النصرة من أضرابه إلا كرجاء العقيم للولد. وما طلبك شد العضد بمثله إلا كمرتكن على خواء، أو متعلق بهواء.

۩۩۩۩۩۩۩

ترك مصاحبة الحمقى

ترك مصاحبة الحمقى

لقد رأيت من غزيرِ الناس من تغرّه مظاهر ما يتجمل به الحمقى، من التزيُّد والتزيُّن، والمفاخرة، والمظاهرة، فيندلف إلى المقاربة، ويتزجّى إلى المخادنة، ثم لا يبرح حتى تَـفْجؤه جرائر تلك المقاربة، وتلسعه مغبة تِيكَ المخادنة.

وقُراب([[58]](#footnote-58)) ذلك ما ثقلُت بشهوده أيامُ الناس، من التزهد في مصاحبة العقلاء، ممن أقفرت جيوبهم، وهجعت حظوظهم، وشحبتْ أيامهم، وشحّت أقسامهم. وما شأن هاته الزّهادة فيهم إلا كَونها برهانَ حمق، وأَمارة خذلان. وكأيّن من غافل عن حق صواب الاختيار، قد أمضّ فؤادَه افتقادُ السلامة، وساختْ رجلاه في خَبار([[59]](#footnote-59)) الندامة.

فإن كنت- ولابد- مصاحباً، فلا تتركن صحبة العاقل، ولو كان فقير النفع، ضعيف الدفع. ولا تركنن لصحبة أحمقَ، ولو كان غزير المال، مرجوّ المآل.

ولا يفارقنك قولي: إنَّ مخالفة عالم، خيرٌ ألف مرّةٍ، من موافقة جاهل.

وقد صحّت نصيحة صالح بن عبد القدوس في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عدوُّك ذو العقل أبقى عليك |  | من الصاحب الجاهل الأخرق |
| وذو العقل يأتي جميل الأمور |  | ويعند للأرشد الأوفق |

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

وظاهر عندي أن ابتلاء بعض العقلاء بمصاحبة الحمقى، ما هو باختيار أساغته الفكرة، وأجرته الفطنة، وفرضته الرغبة، إنما هو ضربُ عقوبة ربانية عجّل بها الله لبعض خلقه في دنياهم. وإلا فما وجه التعقل في صحبة مختلَس العقل، مهتَلَس الفطنة، مسلوس الحكمة، مسلوب النباهة؟ وما وجه التعقل في تعشُّمِ الخير في صحبة من حاله كمن وصفنا؟ فإن كان عذره أنه آنس منه روحاً طيبة، ونفساً جميلة، فما حاله إلا كواصف الجمال في عينٍ عمشاء، أو شجرة عشماء([[60]](#footnote-60)). فما لصفة أياً كان حسنها، وقدرها، أن تشفع، أو تسوّغ مقاربة ومخادنة من كانت فيه، وقد تلبس بالحمق.

۩۩۩۩۩۩۩

**فضل المشاورة وتعاطي الرأي**

فضل المشاورة وتعاطي الرأي

لو أنّ رجلاً آنس من نفسه أمارات الترفع عن مشاورة أهل العقول، والاستبدادِ بالرأي دون ذوي الحكمة، ممن جرَّسَهم([[61]](#footnote-61) ) الدهر، فلْيوَطّئْ نفسه لسقطة تَذهَب بباطنه وظاهره، فإنه يوشك أن يذهبَ سلوكُ مثلِه، بمثله.

وقد قيل في فضل الشورى: "المشاور بين أمرين: صوابٍ يفوز بثمرته، أو خطإٍ يُشارك في مكروهه". فإن ناله الصواب، فقد حصل ما لأجله شاور، وفاز بما إليه هدف. وإنْ ناله الخطأ؛ خفت عنه مؤونة الإحباط، وتوزع اللّوم بينه وبين من أسدى إليه المشورة. لأجل هذا كانت المشاورة بركةً، وجُنةً، فإنْ لم ينل المشاور بها الخير، لم ينله بها الضَّــيْر.

أما المستبدّ برأيه الهاجر للمشاورة، فإنّ مكروه خطئه، سيكون به محيقاً، دون تهوينٍ، وبه محيطاً دون مشاركة. وفي هذا ما يُبهض النفس، ويؤودها، ويزري بالهمّة ويثقلها.

وليس أدلّ على تَوَكّد الحمق في صاحبه، من الاستبداد بالرّأي، واتخاذ آذانٍ مسدودة، وقلوب مصدودة؛ تعمى عن فضل المشورة، وتعشَى عن ثمرة اجتراحها، وتترفع عن جدوى انتهاجها ؛ غروراً. لذلكم كان الغرور للحماقة قريناً، مرتبطاً وإياها بقرابة موثوقة، ورحم غير مقطوعة.

أمّا مُستحق المشاورة من الناس، الجديرُ بأن يُلجأ إليه عند التحير، فهو بينهم نادر السُّنوح، عزيز الوجود، فهو كبارح الأروى قليلاً ما يُرى[[62]](#footnote-62). فإن ظفرت بمن هو أهل لذاك فاعقد وثاقك بصلته، واشدد يمينك برأيه. ولا يطغينك أنْ كنت ذا توفيق متصل، أنْ تشاور من استحق أن يُشاور.

وحاذر أن تطلب الرأي والتدبير من غير فَطِن، نبيه، ذي خبرة، وتجربة، فما كان للمشاورة أن تستجمع فضلها وتؤتي ثمرتها، وتحقق بركتها، إلا باقترانها بأهلها، وطلبها ممن هو من أهل النباهة، وأولي النَّصاحة، ممن يحسنُ يفهمُك، ويتقن ينصحُك.

وما جعل الله لأحد من خلقه غَناء عن الاسترفاد بعقول أهل البصيرة من مجايليه، والاعتضاد بأهل الرأي والنصيحة فيهم. وما استغنى عن ذلك إلا نبي، لتحقّق الاسترفاد له من جناب الله –تعالى- مباشرة، فلا حاجة له - والحال هذه- بما يهبُه أهل العقول لمن احتاج نصحاً، أو اعْتاز مشورة. فله في الله أبلغ عوضٍ، به يتأيّد، وله فيه أقوى سند، به يتسدد.

۩۩۩۩۩۩۩

**سنة الحياة البلاء والإيذاء**

سنة الحياة البلاء والإيذاء

ليس يغيب عن نظرنا كونُ معهود شأن الحياة أن تشْتدّ وتمتدّ، ثم تحورَ فترتد، صافقة صافعة، خافضة رافعة. تؤلم الوجوه، وتدمي الجلود؛ جراءَ توارد الصفعات، وتواتر الكدمات. ثمَّ هْي تجور بما حَق لهم منها، وتحيف بما استقام لهم فيها.

هذا خُلق في الحياة عريق، ودأب منها عتيق. وليس ينجو من ضيرها وكربها فاضل ولا كامل، بل إن أشدَّ بلائها منوط بأهل الفضل الأماثل. ومصداق هذا أن سيدي رسول الله حين سئل: **(أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثم الصَّالحون، ثم الأمثلُ فالأمثلُ)**[[63]](#footnote-63).

ولولا كلمة من الله سبقتْ، لكان الناس أمة واحدة، على جديلة واحدة. لا تفاضل، ولا تفاوت، ولا تفارق. لكنَّه شاء ما شاء، فكان ما كان، ممَّا أكنّه في خلقه، وكوّنه في كونه. فتبارك الله أحكم الحاكمين.

وإنْ أنت ذهبت تطلب للسَّلامة أسباباً تُديم شدّك إليها، أو ترمي إلى الهناء أملاً بدوام حضوره إليك. فاعلم حق اليقين، أنَّك تطلب محالاً، وتروم ما لم يكتب لأحد من أهل الدُّنيا، لا نبيّ ولا وليّ، ولا رفيع ولا دَنِيّ.

فاترك عنك خُلّب المطالب، ومَوْهوم الرّغائب، وامخر عُباب بحر حياتك، بما أنت عليه، وعلى ما أنت فيه. فإن أصابك خير فاشكر، وإن أصابك شرّ فاصبر. فهذا خُلُق المؤمنين، وما يُلقَّاه إلاّ ذو حظ عظيم. وكم قد حرم منه من حسبناه أهلاً له، وكم قد ناله من ظنناه خِلواً منه. فليس كل من كان له من الفضل سهم، بنائل من الصّبر سهماً. فقد أبت الفضائل أن تجتمع إلا لفئام قليلة، هم بين النَّاس كغَرفة ماء صغيرة، من نهر وافر مديد.

\*\*\*\*\*\*\*\*

ولئن وجدت من نفسك جلَداً على شدائد الدنيا، و كُربات الحياة، و بوائق أهلها، فألفيتها تمر بشراع صبرك، فلا تمزقه، وتصدم أمواجُها قارب أيامك فلا تقلبه. ثم وجدتَ دينك لازال ماكثاً في قلبك؛ فاعلم أنك من المصطفيْن الأخيار،وأنك في نعمة لن تدرك قدرها إلا يوم يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

ربّ فاضل استزار الموت، واستقدم الفوت، واستنفد الصّبر؛ واستحب القبر؛ من هول مَرائي الأيام، وبوائق الأزمان، وانفلات الخلائق، وانبثاث البوائق. وكم منهم من أعلن بلسان حاله قول شيخ المعرة أبي العلاء:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياة ذميمة** |  | **ويا نفسُ جِدِّي، إنّ دهرَك هازلُ** |
|  |  |  |

وأمضّ من هذا قول الوزير المهلبي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا موتٌ يباع فأشتريه |  | فهذا العيش ما لا خير فيه |
| ألا موتٌ لذيذ الطعم يأتي |  | يخلصني من العيش الكريه |
| إذا أبصرت قبراً من بعيد |  | وددتُ لو أنَّني فيما يليه |

۩۩۩۩۩۩۩

**خطر الفراغ والعَطَل**

خطر الفراغ والعَطَل

لم أرَ أضرَّ- على ابن آدم- من وقت يطول دون طائل، ولا أشأمَ مِن زمن يوهـَبُه دون عمل يملؤه، أو سعي يشغله. مع وُفور صحةٍ، وكمال قوة- وأيمُ الله- تلك هي المحْسَرة الثانية من قول نبينا الكريم،صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: **(نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس؛ الصحة، والفراغ)[[64]](#footnote-64)**.

لاجرم أن فراغ الزمن، وعُطُولَ السَّعي، وخُمول الجوارح، كل أولئك مُؤذنٌ بخمود الروح، وهمود النفس، وجمود الهمة. ولعمري إن هذا- في حقيقته- موت قبل الموت، وفناء قبل الفناء. فماذا بقي لابن آدم إن هي خمدت فيه الروح، وهمدت منه النفس، وجمدت فيه الهمة.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

وليس يغرب عنَّا أن وقت حياة الإنسان أمانة، حمَّـلَنَاها واهب الحياة، وأنه سائل عنها عبيده يوم تلقاه. لذلكم قال مصطفاه: **(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه)**[[65]](#footnote-65).

إنَّ أهل العقول يستثقلون كل عَطول، برغم تمكثه عن اجترام أي خير أو شر، فإن مُكثه عاطلاً خاملاً مؤذنٌ بكلّ ضُرّ، في أيّ زمان، وبأيّ شكل، وفي أيّ مكان. ولا عجب في أن واهِلةَ([[66]](#footnote-66)) أمره قد بشرتْ بما سنح من آخر شأنه.

ولم يكن من باب المبالغة قول ابن مسعود: ((إني لأبغض الرجل أن أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة )). ([[67]](#footnote-67))

أَخلٍقْ به من صانعٍ للسّأَم، ومُستحْقِبٍ للبَرَم([[68]](#footnote-68))، كلُّ من أوردَتْهُ غفلتُه معاطن العُطول، وزرائب الخمول، حتى صار سُبَّة على الإنسان، وإِصْراً في المكان، وفراغاً في الزمان.

وما ذاك فيه بأشدَّ ما استحقَّه من نُعوت الزِّراية، بل هو مجْدرة للمزيد، ما دام على ما هو ماكث عليه، وما سار إلى ما هو قاصد إليه، من صنائع الهمود، وعوائد الخمود.

۩۩۩۩۩۩۩

**فضل العلم وطلبه**

فضل العلم وطلبه

ليس يتم شرف الإنسان حتى يجمع الله فيه خصالاً هي: الدّيانة، والكياسة، والفطانة، والفقاهة، وحسن الخلُق. فإن فاته وراء ذلك من شيء؛ فلن يضيره، إلا ما يضير النهر العامر، من نُغبة طائر.

وبحسب العلم بركةً، وطُفوحَ خيرٍ أنَّ فضله ضافٍ على؛ طالبه، وكاسبه، وباذله، وقابله، وناقله، وحاضره. وبحسب من نالهم وصف العلم- شرفاً- أنّ ربّهم أشركهم في صفة من صفاته، وقصَر تحقّق خشيته فيهم، وكمال فضله عليهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ‌یَخشَى ٱللَّهَ مِن عِبَادِهِ ٱلعُلَماءُ﴾[[69]](#footnote-69).

ولقد استقرّ بين سنن الله في الحياة، أن نوال كرائم الأشياء، لا يتاح لغيرِ مَن كدّ وجدّ، وفي طلبها اشتدَّ. وإنْ أحد أخبرك أن في الناس من أوتي من العلم، ما لم يبذل فيه مهجة نفسه، وراحة بدنه، وبهجة عمره، فاعلم أنّه كاذب. ومن أوهمك أن العلم يُنال بغير التّعنِّي، والتّقصِّي، فأيقن بأنَّه خادع.

وليس في المبالغة قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| طلبُ العلوم بغير الجهد والجلَد |  | مثل العقيم يُرجّي مقدم الولدِ |
| فإن رأيت عقيماً جاءه ولدٌ |  | فاطلب من العلم ما يأتي بلا سَهدِ |

۩۩۩۩۩۩۩

**حسن الخُلق وفضله**

حسن الخلق وفضله

لكل غابر تركةٌ ووَرثة، فالصلاح ترِكَةُ الصالحين، والفساد ترِكة الفاسدين ولقد نعلم أنَّ من أمارات توفيق الله لعبده، عونه على فطام النفس عن ارتضاع شهواتها، وسَوْقُها إلى احتباء ثوب التلبّث، واكتساء كساء السَّكينة، واستدبار دِمنة([[70]](#footnote-70)) التقصير، واستقبال قِبلة التّشمير، والإحسان لوجهة التّدبير. حتى ما يكون مفعول الفاعل منّا خارجاً عن مساق الفضائل، ولا نادّاً عن مسار الكرائم.

ولقد نعلم أن مبعث حسن الخلق، ومبدأ حقيقته ما يوهب لواحدنا من مصحة القلب، وسوية النفس، وسكينة الروح، حتى يصير سلوكه، وقوله، وفكره، وهمه، وتركه مقوداً إلى هذه المعاني بأجمُعها، متزيّلاً عن معايب البشر، ومصايبهم، وفي نجوة[[71]](#footnote-71) عن بوائقهم وفواقرهم.

وجُمّاع كلّ ذلك النظر إلى حقيقة الله تعالى، والتّحقّق بتحقيق الحكمة من فيض جنابه، فمعرفته منطلق الحكمة، وطاعته سبيلها، ورضاه غايتها. فهو قلب الغاية، ولبُّ المقصد، وسُوَيــْداء المرام.

وما سوء الخلق في حقيقته إلا ترك لحسنه، وجريرة لمزايلته[[72]](#footnote-72). فبقدر ما يُتارك ابن آدم من محاسن الأخلاق؛ يحتقب من مساويها، وبقدر ما يستقلّ من سميحها؛ يستكثر من سميجِها.

ولستُ على مذهب من يرى حسن الخلق، مسلكاً مكتسباً. إنما هو عندي هبة لدنّية، وعطيّة ربانية، وكأيّن من أحاسن الناس أخلاقاً، قد استقاموا على حسنها، حال حياة ٍلهم محفوفة ٍ بالصوارف عن الخير، وبالدوافع إلى الضير، ومتلفات الخير. مَنْ افتقاد عاطفي، وافتقار دنيوي، وضيق معيشي.

وكم قد رأينا من أفسد الناس أخلاقاً من بذل أبواه غالب الجهد لأجل تقويم سلوكه، وتجنيب عقوقه، ونحقيق سُموقه.وما استكانوا وما وهنوا حتى استطال عوده، واشتد عموده، على خلق فاسد، وسلوك عاطل.

خُلُق التّغافر والتّغافل

خُلُق التّغافر والتّغافل

التّغافر رتبة علِية في مدارج حسن الخلق، وأمارة محكمة على استحكام الحكمة، وتمام العقل، ووفور النباهة، وتحقق الكياسة.

وحدّ التغافر(عندي)؛ أنه صرف الاستدراك عمّا لا خير في استدراكه، مما تَرْكُ التّنبيه عليه، أرجى لحصول الخير من التنبيه إليه. وهو بعينه ما يسميه بعضهم بالتّغافل.

ولقد علِمـَت الناس أن التّغافل مانع لكثير من صنوف الشر، وأنه حاجر لغزير من صروف الضُّر، مما الشأن فيه تنغيص الصّفاء، وتكدير الهناء، وتعْكير الرفاء[[73]](#footnote-73).

ولقد علمنا من شأن التغافل والتغافر أنَّ في تركه وقوعاً فيما كان هو حاجزاً عنه، ومانعاً منه. لأجل ذلكم قال أمير المؤمنين ابن أبي طالب: "من لم يتغافل تنغصت عيشته". ومن بابه قال الأعمش- رحمه الله-: "التغافل يطفئ شرًا كثيراً".

وحسبُ التغافل خيراً وفضلاً، أنه من خلق الأنبياء. كمثل ما كان من يوسف- عليه السلام- يوم أن قال إخوته بحضرته لمزاً له: ﴿قَالُوۤا إِن ‌یَسرِق ‌فَقَد سَرَقَ أَخ لَّهُۥ مِن قَبلُ فَأَسَرَّهَا یُوسُفُ فِي نَفسِهِۦ وَلَم یُبدِهَا لَهُم ﴾[[74]](#footnote-74)،فإسراره لها وتركه الرّدّ عليهم، هو تغافل منه وتغافر.

وعَن محمد بن عبد الله الخزاعي: سمعت عثمان بن زائدة يقول: "العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في التغافل". قال: فحدثت به أحمد بن حنبل، فقال: "العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل"[[75]](#footnote-75)

وليست الكياسة، والفطانة، والفقاهة، بموصلة صاحبها حدّ الحكمة، ما لم ينضم فيه إليها تغافل عن مواقف السَّفاهة إليه، وتغافر لمواطن الجهالة عليه. قال معاوية بن أبي سفيان: "العقلُ: ثلثُه فطنةٌ، وثُلثَاه تغافلٌ"

وما أجود قول شَمِر بن عَمْرو الحَنَفِيّ:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي |  | فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنِينِي |

وأشرف شواهد طلب التغافر قوله- جلّ وعزّ-: ﴿‌وَأَعرِض عَنِ ٱلجَٰهِلِینَ﴾[[76]](#footnote-76) وما يكون هذا الإعراض إلا بتغافر وتغافل من المرء عمَّن اجترح ما يسوؤه من قول أو عمل.

لا تكن مسلوس العقل، مسلوب الرويّة؛ فتكشف خبيء شأنك إلى شانئك؛ فَيُشهرك بما يشينك. ولا تشكُ إلى حاسدك بخفي أمرك، فتكون كمن ذخَّر كنانةَ عدوِّه، بما يقرب هلاكه.

المنتكس عن رَحْبة ربه

المنتكس عن رَحْبة ربه

كائنٌ من الناس من هو قاطع وشيجةَ ربِّه، ومغادر رحبة ودّه، ومنتكس عن صلاحٍ كان فيه، إلى خيبة أمسى بها، ثم أصرّ عليها. هذا مثله كمثل ذي الشرِّ بين البشر، ممن ضنكتْ معيشته، وكرِبت حياته؛ حتى كأن أتاتين الأرض أمست له وطاء، ليس للفرج نحوه فُرجة، ولا فرح له إلا دونه بَرَح. وقد زايله الأُدم، وكان له كساءً، فاحتوشته الهموم بعد سلخه دهراً نائياً عن شدّتها، سالماً عن جُسأتها، فصار هريساً لصخرة الدنيا، حبيساً عن نشقِ خيرها، غميساً في لجج ضيرها، وما كان إلا أن تأبَّد مستوحشاً، وتأبّى عن الائتناس، وممازجة الناس، فاحتوشه الابتئاس.

ولا يغرب عنَّا أنَّ هذا الحال الانتكاسي الذي يبتلى به كثير من العباد، هو حال ماكث في ذروة الخذلان الذي يكسوه الله كل من غضب عليه، وخسر بركة المكث في سواء رحبته، ووسط رحمته.

والأمر في ذاك من نوع الانسلاخ عن آيات الله، ممن آتاه الله إياها، وهذا بعينه ما أورده الهادي المعين في قوله { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين } الأعراف

وليس بغارب عن شريف فهمك أن الانسلاخ من آيات الله، هو باب الخروج عن رحاب رحمته، وواسع رحْبته، إلى أرض الخذلان، ومعيشة الضنْك.

ولا نرى باعثاً إلى ذلكم غيرَ داعيين كريهين هما: داعي الشهوة، وداعي الشبهة.

فقد تغلب الإنسانَ شهوته؛ فتحور به إلى مقتضى تحصيلها، على رغمٍ من مراد الله تعالى؛ فيحتقب بذلك شؤمَ مغادرة رحاب ربه.

و بنحو ذلك قد تغلب على العقل شبهة تجور بذي الحجر عن معقد تعقُّله، وتنوء بذي الحجى عن مناط حكمته؛ فيلقَى نفسه قد غادرت رحاب الرضى الرباني، ملقيةً صاحبها في مفازة الهجران، ومسْبعة الخذلان، ولاتَ حين مندم.

۩۩۩۩۩۩۩

الــختـم

الــخـتْـم

إنك إذْ تختم هنا ما قد سطَرته لك، فإني أرتجي أن يكون لروحك به مَرْوَح، ولعقلك منه مَعْقل، ولنفسك فيه مَنْفس. فقد أودعتُ فيه من روحي، وعقلي، ونفسي.

كما أرجو لك أنْ يرضيَك، فإني عنه راضٍ. فارضَ مني بما رضِيَتْ به نفسي لنفسي. وإن لم يجد هذا له موطناً في قلبك، أو موطئًا في عقلك، وتأبّى عن القبول، فلن تَؤودكَ دعوة خير، تطالنا بركتها. وأنت وما ترى وما تقول. والله المقصد والمأمول.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

**كان الفراغ منه سلْخ جمادى الأولى من سنة أربع وأربعين**

**وأربعمئة وألف عن هجرة**

**النبي صلوات الله وسلامه عليه**

۩۩۩۩۩۩۩

فهرس المحتوى

فهرس المحتوى

[الفاتحة 12](#_Toc205819618)

[باعث كتابة المكتوب 21](#_Toc205819619)

[حقُّ العربية 25](#_Toc205819620)

[مواتاة العربية، وتنكُّب أهلها 32](#_Toc205819621)

[مواتاة العربية، وتنكب أهلها 33](#_Toc205819622)

[الشكوى من سوء خلائق البشر الشكوى من سوء خلائق البشر 39](#_Toc205819623)

[فضيلة العزلة 46](#_Toc205819624)

[الهمَّة مُوصِلة، والخمود مهلكة 56](#_Toc205819625)

[الهمَّة موصلة، والخمود مهلكة 57](#_Toc205819626)

[رذيلة نكران الفضل 59](#_Toc205819627)

[رذيلة نكران الفضل 60](#_Toc205819628)

[ترك مصاحبة الحمقى 70](#_Toc205819629)

[ترك مصاحبة الحمقى 71](#_Toc205819630)

[فضل المشاورة وتعاطي الرأي 74](#_Toc205819631)

[فضل المشاورة وتعاطي الرأي 75](#_Toc205819632)

[سنة الحياة البلاء والإيذاء 78](#_Toc205819633)

[سنة الحياة البلاء والإيذاء 79](#_Toc205819634)

[خطر الفراغ والعَطَل 83](#_Toc205819635)

[خطر الفراغ والعَطَل 84](#_Toc205819636)

[فضل العلم وطلبه 87](#_Toc205819637)

[فضل العلم وطلبه 88](#_Toc205819638)

[حسن الخُلق وفضله 90](#_Toc205819639)

[حسن الخلق وفضله 91](#_Toc205819640)

[خُلُق التّغافر والتّغافل 94](#_Toc205819641)

[خُلُق التّغافر والتّغافل 95](#_Toc205819642)

[المنتكس عن رَحْبة ربه 98](#_Toc205819643)

[الــختـم 102](#_Toc205819644)

[الــخـتْـم 103](#_Toc205819645)

[فهرس المحتوى 104](#_Toc205819646)

۩۩۩۩۩۩۩

1. الجديلة هنا بمعنى الطريقة والحالة. [↑](#footnote-ref-1)
2. -الأخاوين جمع خوان، وهو ما يوضع عليه الطعام والشراب. وقد كنّيت به عن العقل الذي خلا مما ذكرت مما يقوم مقام الأكل. فالخوان الفاقد لأصناف الطعام، كالعقل الفاقد لأصناف العلوم، يظل خاوياً عاطلاً غير ذي جدوى. وتتمأد أي تصير تلك الأخونة موائد عامرة. [↑](#footnote-ref-2)
3. -عنيت: مصطفى صادق الرافعي (ت 1937م)، ومحمود محمد شاكر(ت1997م)، وأبا تراب الظاهري الهندي(ت2002م). [↑](#footnote-ref-3)
4. الضرائب هنا بمعنى الأشكال والأصناف المشابهة. [↑](#footnote-ref-4)
5. الوَجاج الستر والحاجز. [↑](#footnote-ref-5)
6. درب، وجرَن على الأمر تعوّد. [↑](#footnote-ref-6)
7. كلوم بمعنى جروح، جمع كلـْم. وهو الجرح ويجمع الكلْم على كُلوم وكِلام. [↑](#footnote-ref-7)
8. أي رضوا. و قنى بمعنى رضي واكتفى، وقَناهُ اللّهُ، وأقْناهُ: أرْضاهُ. [↑](#footnote-ref-8)
9. نشوز الأرض: ارتفاع فيها يفقدها صفة الاستواء. [↑](#footnote-ref-9)
10. ما يتعلل به، ويُشغل به. [↑](#footnote-ref-10)
11. الزيادة بتكلف. [↑](#footnote-ref-11)
12. أركى إليه أي لجأ. وارتكى عليه أي اعتمد والتجأ. [↑](#footnote-ref-12)
13. تهوّك الرجل اضطرب في القول. والهوَك الحمق. والأهوك والمتهوك المتحير وهو نفسه الأهوج. [↑](#footnote-ref-13)
14. أسجّن أحبس وأحجز وأخفي. [↑](#footnote-ref-14)
15. العجمة وعدم وضوح الكلام، وتعني اللُّثغة، والأحكل الأعجم من البهائم. [↑](#footnote-ref-15)
16. جمع رائقة وهي الخالصة الصافية. [↑](#footnote-ref-16)
17. تطلق على ما يتذوق به الإنسان الأشياء. [↑](#footnote-ref-17)
18. الجُسوء والجسأة اليبوسة والصلابة والخشونة. [↑](#footnote-ref-18)
19. النبوة: بفتح النون، وسكون الباء، هي المرة من الارتفاع والاعتلاء. [↑](#footnote-ref-19)
20. أبهض أي أثقل. والباهض الثقيل. [↑](#footnote-ref-20)
21. فهَّ: زلّ أو نسي من عيّ، وتعني العجز عن الكلام. [↑](#footnote-ref-21)
22. التهاته: جمع تهتهة وهي التواء في اللسان مثل اللكنة. [↑](#footnote-ref-22)
23. أي نائمة خامدة. [↑](#footnote-ref-23)
24. -الغذوي هو الرضيع الذي لم يصب من حليب أمه. [↑](#footnote-ref-24)
25. الخاطل: المخطئ. [↑](#footnote-ref-25)
26. النغبة: أي ما يحمله الطائر بمنقاره من الماء. [↑](#footnote-ref-26)
27. أي القصير قصراً مفرطا وهو ما يعرف في وقتنا بالقزم. [↑](#footnote-ref-27)
28. الحج: 18 [↑](#footnote-ref-28)
29. -خاس خيْساً فهو خائس، وهن خائسات. بمعنى الغدر. وخسّ يخسّ خساسة وخُسوسة، إذا هان وذلّ وحقُر، فهو خسيس وهنّ خاسئات. [↑](#footnote-ref-29)
30. -أحمَّ الأمر حان أوانه.وقرب ودنا. [↑](#footnote-ref-30)
31. حفرة تحتفر ؛كمينًا للإيقاع بالفريسة: تجمع على زُبىً. ومنه قول العرب" بلغ السيل الزُّبى". [↑](#footnote-ref-31)
32. القفية: حفرة تتخذ لترصُّد الصيدة. [↑](#footnote-ref-32)
33. أظهرت لهيبها. [↑](#footnote-ref-33)
34. ألَّب يؤلب أي أفسد، وحرّض. [↑](#footnote-ref-34)
35. أي يدفعونهم، فالبهز الدفع بشدة. [↑](#footnote-ref-35)
36. العيف: مصدر عاف يعيف أي كرِه يكره. [↑](#footnote-ref-36)
37. خبعَ الرجلُ الشيءَ خبأه والخبيع المخبأ. وتميم تسمي الخباء بالخباع. وفي المتن أني مخبوء شرورهم الخفي. [↑](#footnote-ref-37)
38. أجاءني أي دفعني وألجأني. [↑](#footnote-ref-38)
39. البقرة: 216. [↑](#footnote-ref-39)
40. - بمعنى أي اجتناب الظهور. [↑](#footnote-ref-40)
41. -أي أقل زمن. والبئيل بمعنى الضئيل. [↑](#footnote-ref-41)
42. أخرجه الدارمي في سننه: باب من كره الشهرة والمعرفة، والترمذي: باب في القيامة. [↑](#footnote-ref-42)
43. التبصرة لابن الجوزي ص272. [↑](#footnote-ref-43)
44. مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي317. [↑](#footnote-ref-44)
45. من أمثال العرب:"إنما هو كبارح الأروى، قليلاً ما يرى". مجمع الأمثال 1/447. بارح الأروى ما يظهر من غزلان الجبال مرة بعد مرة على نحو متباعد. والأروى جمع أُروية. الغزالة الجبلية. [↑](#footnote-ref-45)
46. التخدّخ تكلف الخداع. [↑](#footnote-ref-46)
47. الزخرف: 32 [↑](#footnote-ref-47)
48. باخ الحَرُّ والكلام مثلاً أي فتر وهدأ. ومضارعه يبوخ. أباخ النار أي أخمدها. [↑](#footnote-ref-48)
49. تبنك أي مكث وثبت في مكانه وتمكن فيه. [↑](#footnote-ref-49)
50. الغُلّة، والغَلَل شدّة العطش وحرارته. [↑](#footnote-ref-50)
51. أي نزع. [↑](#footnote-ref-51)
52. أثاب يثيب أي كافأ بخير أو شر. [↑](#footnote-ref-52)
53. لم يصح له وجود في دواوين الحديث الأصلية بهذا التمام. والحديث بعامة أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 6/311 من حديث أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل: ‌إني ‌والإنس ‌والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري) وفيه بقية وهو كثير التدليس. [↑](#footnote-ref-53)
54. الطعنة السلكى أي المستقيمة، والمخلوجة التي تكون منحرفة معوجّة. [↑](#footnote-ref-54)
55. أي أنهم يتخالطون، ويتواصلون؛فالمشَج والمشيج كل شيئين اختلطا، والجمع أمشاج. والتواشج أي التداخل بين الأشياء، نقول مثلاً تواشجت الأغصان، وتواشجت المصائب. [↑](#footnote-ref-55)
56. -ما تشده المرأة الرفيعة العجفاء على عجيزتها لتبدوا أضخم وأكبر. [↑](#footnote-ref-56)
57. أصقب الرجل الشيء إصقاباً أي قربه، وتصاقبت تصاقباً البيوت أي تقاربت. [↑](#footnote-ref-57)
58. أي القريب منه. [↑](#footnote-ref-58)
59. الخَبار الأرض اللينة المسترخية بحيث تسيخ فيها الأرجل. [↑](#footnote-ref-59)
60. الشجرة العشماء ما كان أكثرها يابساً. [↑](#footnote-ref-60)
61. جرسه الدهر جعله خبيراً وأزيد حنكة وحكمة بأمور الحياة. [↑](#footnote-ref-61)
62. تعبر العرب في بعض أمثالها عن الشخص قليل الظهور بقولهم هو كبارح الأروى، أي ما يبرز يظهر من أروى في الجبال. والأروى جمع أرويّة وهي الغزلان الجبلية. [↑](#footnote-ref-62)
63. - الحديث أخرجه أحمد في مسنده، قال: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: (يا رسول الله ‌أي ‌الناس ‌أشد ‌بلاء؟ قال: " الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة "). وأخرجه أبو داود وابن أبي شيبة والدارمي وابن ماجه والترمذي وأحمد بألفاظ قريبة منه. [↑](#footnote-ref-63)
64. أخرجه البخاري، وأحمد، وابن ماجه، والترمذي، وابن أبي شيبة، كلهم من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما. [↑](#footnote-ref-64)
65. تقدم تخريجه انظر ص24. [↑](#footnote-ref-65)
66. الواهلة أول الشيء ومبتدؤه. [↑](#footnote-ref-66)
67. حلية الأولياء، أبو نعيم، 1/130. [↑](#footnote-ref-67)
68. المستحقب الجامع والمحصل. البرم الملل والسّأم. [↑](#footnote-ref-68)
69. فاطر الآية 28. [↑](#footnote-ref-69)
70. الدمنة تطلق على المزبلة، وما يبقى من آثار الناس وديارهم المهجورة. [↑](#footnote-ref-70)
71. النجوة المرتفع من الأرض. ممَّا الشأن فيه أن يحتميَ الإنسان به عن الخطر ويأمن. تجمع على نجوات. [↑](#footnote-ref-71)
72. -أعني أن سوء الخلق في واقعه ترك للخلق الحسن، وأثر مترتب على مفارقتة. [↑](#footnote-ref-72)
73. الرَّفاء والرَّفء هو ضمُّ وجمع الممزق والمتفرق. وهو بمعنى الوئام بين الناس. ويقال أرفأ الثوب ورفأه إذا أصلحه وخاطه. [↑](#footnote-ref-73)
74. يوسف: 77 [↑](#footnote-ref-74)
75. تهذيب الكمال في أسماء الرجال 19/ 370 ترجمة عثمان بن زائدة. أورد الْبَيْهَقِيُّ فِي (شعب الإيمان 6/330 ).

    = [↑](#footnote-ref-75)
76. الأعراف: 199  [↑](#footnote-ref-76)